المرأة في إنجيل يوحنّا

مقدّمة

تشهد الدراسات الكتابيّة واللاهوتيّة في هذه السنوات الأخيرة، فورة كبيرة تتمحور حول موضوع المرأة في الكتاب المقدّس، وانعكاساته على دورها ومكانتها في كنيسة اليوم. ويفيد الرأي السائد شعبيًّا، بأن يسوع قد حرّر المرأة من العادات والتقاليد التي كانت تحدّ دورها بالأعمال المنزليّة والعائليّة، في بيئة يهوديّة لا ترحمها.
موضوع المرأة غير مطروح أبدًا كموضوع محدد ومستقل في العهد الجديد، فلا يمكننا بالتالي أن نأخذ النصوص ونعطيها قوة البرهان، لأن كل فكرة تطال الرجل أو المرأة يجب أن توضع في إطارها الاجتماعي والتاريخي من جهة، وفي الإطار اليهودي الذي يهدف إليه الكاتب الملهم، من جهة ثانية.

في الإنجيل الرابع، يبدو ملفتًا للنظر المكان الواسع الذي يعطيه الإنجيلي للنساء، والدور المهم الذي يسنده إليهن في كامل مساحة كتابه، بحيث نرى النساء في كل مفاصل الإنجيل المهمّة. مع أنّ يوحنا لا يقدّم للقارئ أي إشارات واضحة عن الزواج ودور المرأة في القرن الأول، فدور النساء في الإنجيل الرابع لا يمكن أن يُفهم إلا من خلال قراءة رمزيّة، متجذّرة في التاريخ وفي القناعات الاجتماعيّة، والدينيّة لتلك الحقبة.

المرأة ودورها في الإنجيل الرابع

للوصول إلى فهم ما يرمي إليه الإنجيلي، لا بد من الالتزام بنص الإنجيل الرابع كوحدة أدبيّة، فنطرح بعض الأسئلة التي تساعد على الإحاطة بموضوعنا. مثلاً، لماذا يعطي الإنجيل اليوحنوي هذه الأهميّة الكبرى لبعض الشخصيّات النسائيّة؟ لماذا يقدِّم هذه النساء بأشكال متعدّدة: كتلميذة، وشاهدة، وصاحبة مبادرات...؟ وكيف تقبّلت الجماعات موقف يوحنا هذا؟ ثم ما المعنى الذي يعطيه يوحنا لكلمة "امرأة"؟ وهل للمكان الذي يفرده لها في تصميم إنجيله أهميّة ما؟
للوصول إلى فرضيّة يمكن من خلالها الإجابة على كل هذه الأسئلة، لا بد لنا أولاً من إدراج سلسلة النصوص التي ترد فيها عبارة إمرأة في الإنجيل الرابع. هذه النصوص هي سبعة:

١. يو ٢:١-١٢ يسوع يفتتح رسالته العلنيّة بمائدة عرس تلعب فيه "المرأة" أم يسوع الدور الأهم.
٢. يو ٤:١-٤٢ في بداية رسالة يسوع العلنيّة، يلتقي يسوع ويحاور "امرأة" غريبة فتكتشف هويته أو بالأحرى يكشفها لها، ويجعل منها رسولة السامريّين.
٣. يو ٧:٥٣-٨:١١ يجتمع الكتبة والفريسيّون حول "المرأة" الخاطئة وحول يسوع الغفور، فيظهر كلٌ على حقيقته، ويعرف القارئ أن يميّز وجه من ليسوا تلاميذًا ليسوع.
٤. يو ١٦:٢١ يستعمل يسوع مثل "المرأة" التي تلد بالأوجاع ليشبّه حالة التلميذ الحقيقي في العالم.

٥. يو ١٨:١٧ أمام خادمة، ينكر بطرس معرفته يسوع.

٦. يو ١٩: ٢٥-٢٧يقدّم لنا أم يسوع، ترافقها نساء أخريات والتلميذ الحبيب، واقفة تحت صليبه.

٧. يو ٢٠:١-١١،٢-١٨ يقدّم لنا مسيرة مريم المجدليّة "المرأة" التي تفتّش عن الرب، فتجده وتتعرف إليه وتصبح رسولة الرسل، بناء على طلبه.

لكننا نضيف إلى هذه المراجع نصوصًا أخرى تأخذ مكانًا واسعًا، وأهميّة كبرى على صعيد تركيبة ولاهوت الإنجيل الرابع. فلا نغفل عن أهميّة نص قيامة لعازار، حيث تلعب مرتا دورًا ريادياً، على جانب أختها مريم (يو ١١:١-٤٤) ؛ ونص دهن يسوع بالطيب في بيت عنيا، حيث تأخذ مريم، إلى جانب أختها مرتا الحصة الأكبر (يو ١٢:١-٨). العدد الكبير الذي يخصّصه الإنجيلي للنصوص المتعلّقة بالمرأة، كما الواقع المفصليّة في مقاطع لاهوتيّة دقيقة، تبرز الأهميّة الكبرى التي يعطيها يوحنا لهذا الموضوع.

آية قانا (٢: ١-١٢: ٢)

يبدأ يوحنا رسالة يسوع العلنيّة بآية الخمر في قانا. يشدد النص الأصلي، الذي يرتكز عليه يوحنا، على تأثير مريم أم يسوع على ابنها، فيقدّمها كمن تتدخّل مباشرة لديه وتدفعه للقيام بأعجوبة، مستعملاً قدرته لما فيه خير الأصحاب والعائلة (يو٢:١-١٢:٢)؛ لكن الإنجيلي يعيد الأمور إلى نصابها بعبارة يضعها على لسان يسوع "لم تأتِ ساعتي بعد". إن إرادة الآب تأتي أولاً.

الغريب في هذا النص أن الكاتب لا يتوقّف عند شخصيّات العرس، ولا عند هويّة العروس. "فالمرأة" التي يتمحور حولها النص هي أم يسوع، يدعوها ابنها "امرأة". إنها امرأة في مقابل الخدم من جهة، وفي مقابل التلاميذ من جهة ثانية. فالتلاميذ حاضرون (يو ٢:١، ١١-١٢)، لكنّهم صامتون وسلبيّون لا دور لهم، وبالرغم من ذلك، فإن النص يعلن في النهاية بأنهم "آمنوا به" بعدما رأوا مجده. إن حوار يسوع مع أمه المرأة، أوضح ماهية التلميذ الحقيقي، فمهّد الطريق أمام إيمان التلاميذ.

العرس هو أبعد من أن يكون عرسًا بشريًّا عاديّا. فالإنجيلي يذكر العرس في بداية النص، وفي نهايته، في إشارة إلى أن الآية وفهمها هي ما يحقق العرس الحق.

أم يسوع، هي "إمرأة" بين النساء، وحواره معها ضروري للتلاميذ أولاً "آمنوا به"، وللخدم ثانيًا لتوضيح هويّة التلميذ "إفعلوا ما يأمركم به". مريم هي "المرأة" التلميذة، تعرف أن تعطي النصيحة الأفضل: "إفعلوا ما يأمركم به". هذا ما نصحت به "الخدم" diakonoi رمز المسؤولين في الكنيسة (راجع أع ٦:١-٦). هؤلاء مدعوون لتنفيذ هذا الأمر، ليس لأنه من أم يسوع فقط، بل لأنه من تلميذة مثاليّة. هنا يكمن العرس الحقيقي.

وحده الإيمان يفسّر الآيات، وللمرأة دور في ذلك.

السامريّة (٤:١-٤٢)

يتبع يوحنا في الفصول الأربعة الأولى خطًا تصاعديًا يتطوّر من نقطة عدم الإيمان إلى الإيمان الحق. فمن اليهود المشكّكين بالآيات التي يقوم بها يسوع (يو ٢:١٨-٢٠)، ينتقل إلى نيقوديمس الذي يؤمن بسبب الآيات، دون أن يكوّن فكرة صحيحة عن يسوع (يو ٢:٢٣ت)، ثم إلى السامريّة التي تتعرّف إلى يسوع على أنه "المسيح مخلّص العالم" (يو ٤:٢٥-٢٦، ٢٩)، وتشارك الغير بهذا الاكتشاف.

يلتقي يسوع بامرأة غريبة ويتحاور معها مما يثير دهشة التلاميذ الذين طالما سمعوا وردّدوا كلمات الآباء "لا تتكلّم مع النساء... فالكلام مع النساء ابتعاد عن الشريعة، واستجلابٌ للتعاسة، ونهاية في جهنّم". تمادى معها في حوار مطوّل على عكس ما يقول الرابينيين الذين يخبرون "أن يوسف الجليلي كان في رحلة، فالتقى بالسيدة بيروريا زوجة مائير وسألها: أي طريق آخذ للوصول على اللّد؟ فأجابته: أيها الجليلي الأحمق، ألم يقل معلمونا الحكماء " لا تطل حديثك مع المرأة؟" كان يجب عليك أن تقول: من أين إلى اللّد؟".

للمرأة السامريّة ستة أزواج، وتعلن أن لا زوج لها. فهل في ذلك إشارة إلى انتظار كمال وجودها من خلال زواجها الحق؟ في النص تركيز على اكتشاف السامريّة لشخص يسوع وإيمانها به، من خلال تطوّر الألقاب المسيحانيّة المتتالية التي تعطيها ليسوع. فهو أولاً يهودي (يو ٤:٩)، ثمّ سيّد (يو ٤:٩)، ثمّ أعظم من أبينا يعقوب (يو ٤:١٢)؛ ثمّ نبي (يو ٤:١٩)؛ قبل أن يشهد الجميع له أنه مسيّا (يو ٤:٢٥)، إلى أن يعلن يسوع "أنا هو" (يو ٤:٢٦)، "المسيح Christos" (يو ٤:٢٥، ٢٩)، ويعلن الجميع له أنه "مخلّص العالم" (يو ٤:٤٢).

لم يفهم التلاميذ سرّ هذا الحوار إلا في النهاية، عندما رأوا إيمان السامريّين. كان حوار يسوع مع السامريّة ضروريًّا للتلاميذ. به فهموا ضرورة دورهم الرسولي في ارتداد البعداء.

كما في نص قانا، لعبت هذه "المرأة" السامريّة دورًا في تحديد ماهيّة التلميذ.

المرأة الزانية (٧:٥٢-٨:١١)

يقع الخبر في الفصلين ٧-٨ اللذين يشكّلان قلب المجادلات مع اليهود عامة، ومع الفرّيسيّين الذين يحاولون إهلاك يسوع، بشكل خاص. أعلن يسوع أن الخطيئة هي عدم الإيمان به، وعندها التقى بالزانية التي، بحسب الشريعة اليهوديّة، يجب أن ترجم (يو ٨:٥؛ لا ٢٠:١٠؛ تث ٢٢:٢٢).

مرة جديدة نحن أمام حوار يدور بين يسوع والزانية التي يتوجّه إليها بصفتها "إمرأة". في النص ثلاث فئات: المرأة الزانية، ويسوع الغافر، والكتبة والفرّيسيّين الخاطئين. هنا أيضًا يلعب حوار يسوع مع المرأة دورًا في إظهار من ليسوا تلاميذًا (اليهود) في إطار جدالات الفصول ٥-١٠.

مرتا ومريم (١١:١ – ١٢:٨)

يجمع القديس يوحنا في الفصلين ١١ و ١٢ تقاليدًا حول بيت عينا، ويضعها في الفقرة التي تسبق الآلام مباشرة. يجد القارئ نفسه أمام مداخلات متتابعة لامرأتين هما أختا لعازر. في الخبر الأول المتعلّق بقيامة هذا الأخير، يحاور يسوع مرتا ثم مريم؛ وفي الخبر الثاني المتعلّق بسكب مريم الطيب الغالي على قدمي يسوع، يفسِّر يسوع عملها الذي ينتقده "أحد تلاميذه".

في حواره مع مرتا (يو ١١:٢١-٢٧)، كشف يسوع هويّته "أنا القيامة والحياة"، بعدما أعلنت مرتا الإيمان الحق "أؤمن بأنك المسيح ابن الله" (يو ١١:٢٧)، وهو ما لم يعلنه أي من تلاميذ يسوع، في الوقت الذي يكشف فيه الإنجيلي بأن الهدف من كتابة إنجيله، هو أن يؤمن القارئ بأن "يسوع هو المسيح ابن الله" (يو ٢٠:٣١). بإيمانها، حدّدت مريم إيمان التلميذ الحق، فاستحقّت أن تكون خادمة مائدة الرب محيي الأموات (يو ١٢:١-٨)، وهو شرف أعطاه إنجيل متى للقديس بطرس وحده. وفي تفسيره لعمل مريم، العابدة على قدميه تسكب الطيب، كما على المذبح المقدّس، أظهر أنها إنما تفعل ذلك كعبادة روحيّة، تتخطّى الحسابات الماديّة الضيّقة، وأفهم التلاميذ أن انسكاب الذات أمام الله لا يُحسب على مستوى الربح والخسارة. هنا أيضًا، تلعب "المرأة" دور الشاهد الحي لما يجب أن يكون عليه التلميذ الحقيقي.

ألم المخاض وفرح الحياة (١٦:٢١)

قبل آلامه مباشرة، ودّع يسوع تلاميذه، وأعلن لهم ما سيكون عليه مستقبلهم. شبّه وضعهم الحالي بالمرأة التي تلد مؤكّدًا "إن المرأة تحزن عندما تلد لأن ساعتها قد حانت. فإذا وضعت الطفل لا تذكر شدّتها بعد ذلك لفرحها بأن قد ولد إنسان في العالم". رأى يسوع في هذه الشدّة التي تسبق الفرح، أوضح ميزة لحالة "التلميذ".

أم يسوع والتلميذ (١٩: ٢٥-٢٧)

يقدّم الانجيلي أم يسوع واقفة عند الصليب تتأمل ابنها، ترافقها نساء أخريات، وبقربها التلميذ الذي سيتحوّل مثالاً للتلميذ: التلميذ الذي يحبه يسوع. يتوجّه يسوع الى أمه بـ "يا امرأة" تمامًا كما في عرس قانا، قبل أن يعطيها أمًا لتلميذه يأخذها الى بيته، بيت "جماعة التلاميذ". في حضورها مع التلميذ في خاتمة الانجيل، بعد حضورها للتلاميذ في بدايته، يكتمل هدف الانجيل: لقد تم.

المرأة رسولة القيامة (٢٠: ١-٢، ١١-١٨)

هنا تأتي آخر إشارة إلى "امرأة" في الإنجيل الرابع، وذلك في إطار الظهورات بعد القيامة. تأتي مريم المجدليّة إلى القبر، وهناك تتعرّف إلى القائم من الموت، وتحمل البشارة للتلاميذ: "لقد رأيت الرب وهذا ما قاله لي". "امرأة" كانت أول رسولة لبشرى الفصح.

في هذا الفصل نحن أمام مسيرتين نحو القبر. الأولى هي مسيرة مريم المجدليّة، والثانية هي مسيرة التلاميذ. وفي حين "يعود التلميذان إلى منزلهما لأنهما كانا بعد لا يفهمان ما جاء في الكتاب، وهو أن يسوع يجب أن يقوم من بين الأموات" (يو ٢٠:١٠-١١)، حملت مريم البشارة كتلميذة رسولة.

"المرأة التلميذة"

هو موضوع يتمحور حول "إمرأة" في حوار مع يسوع. ما يلفت النظر في كل هذه النصوص، وهو وجود التلاميذ، ولو بخف، من جهة؛ وعلاقة الحوار بين يسوع والمرأة، بدور التلميذ من جهة ثانية.

من المؤكّد وجود علاقة بين "المرأة" و"التلميذ" في الإنجيل الرابع. فيكفي الانتباه إلى اهتمام الإنجيلي بذكر التلاميذ (أين هم، لماذا هم غائبون، التشديد على عودتهم، وإيمانهم، وتصرّفاتهم، إلخ) ليتّضح لنا ذلك. وفي كل النصوص هذه، تبدو المرأة سبّاقة إلى حيث يجب أن يصل التلميذ الحق، وذلك قبل التلاميذ، الذين يظهرون وكأنهم مجرّد مشاهدين، عليهم أن يفهموا ما يجري بين يسوع و"المرأة". إن لقاءات يسوع وحواراته مع "المرأة" هي، في الإنجيل الرابع، مناسبات توضح ماهيّة التلميذ.

تقع هذه النصوص في إمكان مهمّة في تصميم الإنجيل الرابع. فمن حيث انكشاف هويّة يسوع الكريستولوجيّة، نرى أن يسوع يكشف عن نفسه بصورة تصاعديّة، تترافق مع تقدّم بنية النص القصصيّة. فهو في البداية "المسيح"، ثم يعلن عن نفسه في الحوارات (ف ٣-٤)، قبل أن يؤكّد أنه "ابن الله". كل هذه الإعلانات تسبّبت بردّات فعل عنيفة من قبل اليهود (ف ٥-٦) ومجادلات (ف ٧-١٠) معهم. ثم ابتداء من ف ١٠ يعلن يسوع بوضوح أنه الإبن الوحيد لأنه يبذل حياته. هذا ما نجده في خاتمة الإنجيل التي تحدّد تصميم الإنجيل في ثلاث نقاط: المسيح؛ ابن الله؛ الإبن الذي يبذل حياته.

في موازاة خط كشف هويّة يسوع، هناك خط إعلان إيمان التلاميذ. فإن كان لهؤلاء أهميّة كبيرة، منذ الفصل الأول عندما أعلنوا أن يسوع هو "المسيح"، فإنهم يتراجعون فيصمتون أكثر فأكثر حتى الفصل ١٣. يقدّمهم الإنجيلي إما بصورة خفيّة، أو كمن لا يفهم. أما بعد الفصل ١٣، وظهور "التلميذ الذي كان يسوع يحبّه" فهم في مركز المتعلّمين الذي يستمعون، طيلة أربعة فصول، لتعاليم الرب المعلّم عن الآب والروح القدس. لكنّهم لن يفهموا إلا إن نفح فيهم يسوع روح القيامة (٢٠:١٩)

فإن قرأنا وضع "المرأة"، بحسب هذين الخطين، لرأينا أنها تسبق التلاميذ إلى "السماع" وإلى "فهم" الكشف الإلهي.

ما هو المقصود إذًا؟

لا يجب أن نقرأ العلاقة بين المرأة والتلميذ (التلاميذ)، في الإنجيل اليوحنوي، وكأنها مقابلة بين المرأة والرجل، بل كمحاولة توضيح لماهية التلميذ الحق. فمن خلال لقاءات يسوع مع النساء، حاول القديس يوحنا لفت انتباه القرّاء إلى ما يجب أن تكون عليه حالة التلميذ: الولادة بالإيمان، وإيلاد الإيمان عند الآخرين، والنضوج بالإيمان. لهذه الغاية لم يجد يوحنا أفضل من صورة "المرأة". هذا ما فعله أيضًا العهد القديم، في كل مرّة أراد فيها الكلام عن علاقة الله بشعبه، فكانت صورة الزواج (الخيانة والأمانة)، والآلام، والولادة وألم التربية وفرحها، وسائله المفضّلة.

التلميذ/ة في الإنجيل، هو من يتبع يسوع سائرًا وراءه على خطاه، لكن يوحنا يضيف إلى ذلك أنه من "يأتي نحو يسوع. هو من "يرى" و"يؤمن". إنه من يولد من جديد باستمرار، على ما قال لنيقوديمس. علاقة يسوع بالتلميذ/ة هي علاقة لا يمكن تحديدها في عبارة واحدة وبشكل مقتضب. إنها علاقة إيمان تتعدّى الرجل "كمذكّر" والمرأة "كمؤنّث". هي علاقة مع "الإنسان" في مسيرة التلمذة.

ففي خبر المرأة السامريّة (يو ٤:١-٤٢)، يتقطّع حوار يسوع مع المرأة بأكثر من مداخلة من الكاتب، يتعلّق العديد منها بالتلاميذ. في آ ٨ يفسّر لماذا طلب يسوع من المرأة أن يشرب؛ وفي آ ٢٧ حين يعلن لها أنه المسيح، يشير الكاتب إلى عودة التلاميذ مع إشارة إلى الغذاء والحصاد، وشرح لهدف يسوع من حواره مع المرأة، ومروره في السامرة (لإتمام رسالته وإرادة ابيه، كان "يجب أن يمرّ في السامرة" آ ٤).

يتمحور النص بكامله إذًا، حول موضوع الرسالة، بحيث ترمز المرأة إلى الأرض الوثنيّة المبشّرة. نجد في النص، لأول مرة في الإنجيل عبارة "أنا هو"، يعلنها يسوع لهذه المرأة، التي يكشف لها أيضًا ما هو أبعد من العبادة الطقسيّة (لا هنا ولا في أورشليم)، ومن هم عبّاد الآب الحقيقيّون، في حين أنه لم يكن قد تكلّم بعد عن الآب لتلاميذه. في حواره مع المرأة جعلها تكتشف قوّة الماء الحيّ، رمز الروح القدس، وهو ما لم يفهمه الرسل إلا بعد القيامة (يو ٧: ٣٧-٣٩). حلّ هذا الماء الحيّ، المتمثّل بالنبع الذي تكلّم عنه يسوع، محلّ التقاليد السامريّة، المتمثّلة بالبئر التي تكلّمت عنها المرأة. فإن كان يسوع هو رسول الآب، يحيا إرادته وينقلها، فالتلاميذ أيضًا رسل والمرأة السامريّة هي رسولة الإنجيل الأولى. في قانا غيّر الرب الأجاجين الستّة الملأى بماء التطهير، فملأها خمر العرس، عرس الله مع شعبه الحقيقي الأمين. وكانت أم يسوع "المرأة" واسطة هذا التغيير بطلبها من الخدام "إفعلوا ما يأمركم به". وفي السامرة غيّر العبادة من طقوس معلّبة جامدة في المكان والأسلوب، إلى عبادة بالروح والحق. وهنا أيضًا نقل السامريّة، رمز التلميذ/ة، من الأزواج الستّة إلى العرس السابع النهائي عرس معرفة الله بالروح والحق.

ويأتي خبر المرأة المجدليّة، وحوار يسوع معها، وكشفه لها حقيقة هويّته وقيامته، كدعوة لكلّ تلميذ/ة للخروج من اليأس والإحباط، إلى التوبة (استدارت مريم) للتعرّف إلى القائم من الموت، والانطلاق في مسيرة البشارة.

خاتمة

أمام المكانة السلبيّة التي كانت تعود للمرأة اليهوديّة أيام يسوع، نتساءل كيف أمكن يوحنّا أن يضع كتابه بطريقة تجعل من لقاءات يسوع مع "المرأة" مثالاً لمسيرة التلمذة. في كلّ الأحوال، أدخل يسوع تغييرًا جذريًا في التقاليد

اليهوديّة عندما سمح للنساء باتباعه. أبرز القديس لوقا هذا الأمر (لو ٨:١-٢؛ ١٨) مشدّدًا على مشروع الله الخلاصي تجاه كلّ المهمّشين ومنهم النساء (المرأة الخاطئة لو ٧:٣٦-٥٠)؛ والمرأة المنحنية لو ١٣:١٠-١٧). لكن القديس يوحنا يتناول هذا الموضوع بشكل مغاير، فلا يذكر مجموعة النساء التلميذات، بل يعبّر عن فكرة ماهية التلميذ/ة، من خلال شخص-مثال هو هذه المرأة أو تلك (أم يسوع، السامرّة، مرتا، مريم، التي تلد، المجدليّة).

مسيرة "المرأة" في إنجيل يوحنا ليست مسيرة موازية لمسيرة "الرجل". فالإنجيلي لا يهتمّ للمقارنة بين رجل وامرأة، بل يكمن كل همّه في إبرازه هويّة التلميذ الحقيقي ودوره، من خلال صورة "المرأة".